حديث المصطفى ﷺ عن المرأة وأسرار علمية جديدة حول دماغ حوّاء

حديث المصطفى ﷺ: «**المرأة كالضلع إن أقمتها كسرتها وإن استمتعت بها استمتعت وفيها عِوَجٌ**»[1].

هل هذا الحديث الشريف هو انتقاص من مكانة المرأة؟ أم هو كشف عن صلاحها لمهمتها التي خُلِقت من أجلها؟

أُثِير عن هذا الحديث أقاويل وتأويلات غير صحيحة أو غير دقيقة، بَيْدَ أنه حديث صحيح السند دون شك، رواه البخاري عن أبي هريرة على هذا النحو[2]:

عن النبي ﷺ قال: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره، واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن خلقن من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيراً**». (كتاب النكاح، باب الوصية بالنساء).

---

(1) أخرجه البخاري في (الحديث: 5184).

(2) مكانة المرأة في القرآن الكريم والسنة الصحيحة، للدكتور محمد بلتاجي، ط: 2000، بتصرف.

كذلك أورده مسلم في كتاب النكاح، باب الوصية بالنساء، حيث أورد في الباب أولاً حديث عبد الله بن عمرو ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة**»[1]، ثم أورد أربعة أحاديث عن أبي هريرة على النحو التالي: قال رسول الله ﷺ: «**إن المرأة كالضلع، إن ذهبت تقيمها كسرتها، وإن تركتها استمتعت بها وفيها عوج**»[2].

وقال رسول الله ﷺ: «**إن المرأة خُلقت من ضلع، لن تستقيم لك على طريقة، فإن استمتعت بها استمتعت بها وبها عوج، وإن ذهبت تقيمها كسرتها، وكسرها طلاقها**»[3].

وعن النبي ﷺ قال: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فإذا شهد أمراً فليتكلم بخير أو ليسكت، واستوصوا بالنساء، فإن المرأة خُلِقَت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، إن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج... استوصوا بالنساء خيراً**»[4].

---

(1) أخرجه مسلم في (الحديث: 3628).

(2) أخرجه مسلم في (الحديث: 3629).

(3) أخرجه مسلم في (الحديث: 3631).

(4) أخرجه مسلم في (الحديث: 3632).

قال رسول الله ﷺ: «**لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقاً رضي منها آخر**» أو قال: «**غيره**»[1].

وقد لغط بعض من لم يفهم الحديث ولا سياقه بأن فيه تحقيراً للمرأة وازدراءً لها.. وهذا غير صحيح إطلاقاً لما يلي:

أولاً: روايات الحديث كلها جاءت في سياق الإعلاء من قيمة المرأة واعتبارها، حيث أورده مسلم بعد حديث أن خير متاع الدنيا المرأة الصالحة، وليس فوق هذا من اعتبار حيث جُعِلَت المرأة أعظم ما يكنزه الإنسان في دنياه من كنوزها حين تكون المرأة صالحة. إذن فنبينا ﷺ جعل المرأة أعظم وأثمن من الأموال والقصور وكل ما يملكه الإنسان في الدنيا.

وفي الحديث الثالث عن أبي هريرة ـ فيما يرويه مسلم[2] ـ أتت الوصية بالنساء بعد أمر النبي ﷺ بأنه: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فإذا شهد أمراً فليتكلم بخير أو ليسكت، واستوصوا بالنساء ...**». وكأني بهذا الأمر الذي تشير إليه هذه العبارة أرى أمر خلاف وقع بين رجل وامرأة بعامة، أو بين زوجين خاصة، وهنا يشدد النبي ﷺ على من يشهد هذا الخلاف، أو يحكم فيه أن يتكلم بخير وصلح وتقريب بين المختلفين، وأن يستوصي في ذلك بالمرأة خيراً.

وكذلك فإن حديث أبي هريرة الأخير يزيد في الوصية

(1) أخرجه مسلم في (الحديث: 3633).

(2) أخرجه مسلم في (الحديث: 3632).

بالمرأة (الزوجة) خاصة، ويرشد النبي ﷺ الأزواج إلى أنه لا ينبغي أن يفرك (يعني: يبغض) الزوج الزوجة، فإن لم يعجبه شيء منها فليوازنه بأشياء أخرى فيها تعجبه، فإذا كان فيها شيء من الشدة في معاملة الناس مثلاً عَوَّضه أن تكون عفيفة ذات دين قويم أو جميلة ترفق به هو . . . أو نحو ذلك[1].

ويلحظ الفرد أن الرسول ﷺ في كل أحاديثه الخاصة بالمرأة يدافع عن المرأة ويناصرها. ويُذَكِّرُ الرجل إذا لاحظ في زوجته شيئاً يبغضه بها، فليوازنه بأشياء أخرى فيها تعجبه، إذن فالرسول ﷺ في كل سياقاته يوصي ويُكَرِّم ويرفع من منزلة المرأة، وليس فيها ما يهينها خلافاً لما يدَّعي به أعداء الدين.

ثانياً: أما عبارة: «إن المرأة خلقت من ضلع . . .» فهي - فيما يبدو - إشارة إلى قوله تعالى في مفتتح سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: 1]، أما النفس الواحدة فيعني: آدم عليه السلام وأما ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ فيعني: حواء التي خلقها الله تعالى من ضلع آدم[2]. ويقول الدكتور محمد بلتاجي: وقد ورد في الإصحاح الثاني من «**سفر التكوين**»: «فأوقع الرب الإله سباتاً على آدم فنام، فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحماً. وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة

(1) شرح النووي على مسلم (3/ 658).

(2) تفسير الطبري (4/ 224).

وأحضرها إلى آدم فقال آدم: هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي. هذه تدعى امرأة؛ لأنها من امرىء أخذت، لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكونان جسداً واحداً، وكانا كلاهما عريانين آدم وامرأته وهما لا يخجلان».

ثالثاً: أما قوله ﷺ: «**إن أعوج شيء في الضلع أعلاه، إن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج.. فاستوصوا بالنساء..**». فلم يقل النبي ﷺ فيها إلا حقاً وواقعاً ملموساً لا شك فيه، ذلك أن أعوج شيء في الضلع أعلاه، وأنه إن حاولت أن تجعله مستقيماً كسرته، وأنه لا ينتفع به في الجسد إلّا على شكله المعوج، لأن اعوجاجه هذا هو الذي يشكل القفص الصدري الذي يحمي القلب وأعضاء الجسم الهامة.

وكأني بالصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ يقيم تناظراً واضحاً بين شكل الضلع الذي خلقت منه حواء، وطبيعة المرأة المخلوقة من هذا الضلع، لِيُنبه على خصوصية في هذه الطبيعة، ينبغي ألا يغفل عنها المربون والآباء والرجال جميعاً في تربيتهم للمرأة والتعامل معها بعامة.

وكأني به ﷺ يبين أن خلق الله تعالى لآدم اختلف عن خلقه لحواء، وأن الرجال ورثوا عن أبيهم آدم طبيعة خلقه، وأن النساء ورثن عن أمهن حواء طبيعة خلقها، فعلينا أن نعي هذا الفارق الهام في الطبيعة، وأن نراعيه في تربية كل منهما والتعامل معه.

أما أن نتجاهل هذا الفارق ونطلب من المرأة أن تكون مثل

الرجل تماماً فهذا مثل الذي يكسر الضلع، يطلبه مستقيماً لا اعوجاج به، وحينئذ لا ينتفع بالضلع في الجسد، وتُطَلَّق المرأة إن كانت زوجة، وكسرها طلاقها، أو تنقطع العلاقة بينهما على وجه العموم.

يقول الداعية المرحوم محمد متولي الشعراوي[1]:

«إن هذا الحديث الشريف ليس فيه ما يشير إلى الانتقاص من المرأة بأية حال، بل هو كَشَفَ عن صلاحها لمهمتها التي خُلقت من أجلها، لنتصور أن الضلع خُلِق مستقيماً، هل كان ليؤدي مهمته في صدر الإنسان؟ لا، إنما اعتداله لمهمته أن يكون منحنياً!.. وإذا ما حاولنا جعل الضلع مستقيماً كسرناه وفقد مهمته الأصلية في حماية القلب والرئتين والأحشاء، وكذلك الأمر في المرأة حين تحاول تغيير طبيعتها في كونها رقيقة وعاطفية، والأم تحنو على براعم الطفولة كالضلع الذي ينحني محيطاً بالقلب باعوجاجه كله!..».

والآن جاء دوري لأُجانب رأي كل من الدكتور محمد بلتاجي والشيخ الشعراوي، وأقول: نعم انحناء الضلع هنا هو لفائدة عظيمة، وعلى افتراض أن الضلع كان مستقيماً، كان في ذلك الحين فَقَد مهمته الأصلية لحماية القلب والرئتين، فتشبيه الرسول ﷺ المرأة بهذا الشكل وتوضيح ما يقصده من قِبَل أبناء أمته، هو على أعظم ما يكون.

---

(1) مجلة الفتوى، عدد 77، 1999، صفحة: 17.

فهل المرأة فعلاً ـ إذا ما أردنا أن نبين ذلك علمياً ـ تختلف عن الرجل في هذا المجال؟... قبل الخوض في الإجابة عن هذا السؤال، أنا واثق كل الثقة كأب، لو وَكَّلتني زوجتي في أن أعتني بالمولود الجديد كما تعتني هي، وأن أقوم بالليل ساعات، كما تقوم هي، وأن أسهر الليالي كما تسهر هي، لما عاش لي طفل واحد من أطفالي الأربعة، وليس هذه صفتي الخاصة كرجل، إنما هي صفة كل الرجال، من ينكر كل ذلك؟ هل حنان الأم لطفلها يمكن أن يمنحه الرجل كما هي تمنحه لأطفالها، بالأحرى (للرضع)، إنه غير ممكن ومستحيل.

ففي كثير من الليالي عندما كان أحد أطفالي يبكي كنت أقول: بدأت تبكي ـ وهي طفلة ـ من جديد وأنا لا أستطيع النوم، وغداً لديّ واجبات كثيرة ومحاضرات كثيرة فكيف أؤديها؟!.

إذن لو حاولنا منع المرأة القيام بواجباتها، وخصوصاً أثناء الليل، من حيث الاهتمام بطفلها، والسهر من أجله، أما تغضب علينا كرجال؟ أما نزعجها؟ وهي الحنون الوحيدة على طفلها، إنها فعلاً تستحق كل الود والاحترام، وإذا منعناها عن القيام بدورها، أما نكسر الضلع الأعوج الذي أحاط بالطفل؟ أي أما نكسر خاطرها؟ الضلع الأعوج في إحدى دلالاته هنا مجاز لانحناء المرأة وشدة عاطفتها وحنانها نحو الطفل.

والآن لو منعنا المرأة عن الاهتمام بطفلها كما قيل آنفاً، أما تنفعل؟ أما تغضب؟ أما تصيبها الكآبة والضغط النفسي والقلق وحالة من الازدراء والشعور بعدم الإحقاق في حقها؟ إنها تصبح ناراً من الغضب بلا شك ولكن لأجل من؟ لأجل طفلك أيها الرجل! لا يخفى أنه طفلها أيضاً، ولكنها حريصة على سلامته أكثر منك . ولعل من قائل يقول: أين برهانك العلمي لتوضّح لنا الاختلاف بين الرجل والمرأة؟ العلم الحديث بتقنياته برهن الاختلاف بين الرجل والمرأة، فدعني أن أبين لك ذلك أخي القارئ وكالآتي:

في سنة 1999م تمت ترجمة مقالة من «واشنطن» بعنوان[1]: «المرأة وكهرباء الانفعال.. نصيب أكبر ومضاعفات أخطر..» ويوضح لنا هذا الكاتب أسرار علمية جديدة «حول دماغ حواء»، مستهلاً كتابته ببعض من الأسئلة والأجوبة كالآتي: هل تختلف استجابةالدماغ لدى المرأة عنها لدى الرجل فيما يخص الانفعال والضغط النفسي؟...

أَحْدَث دراسة نفسية أجراها علماء النفس والاجتماع في الولايات المتحدة الأمريكية تقول: نعم.. وتضيف: إن استجابة الدماغ لدى الذكور تختلف كليّاً عن استجابة الدماغ لدى الإناث

(1) عبد الله رشيد، زهرة الخليج، 1999، العدد 1062، تموز، وهو بحث علمي صرف ـ لا علاقة له بالدين ـ ولكني استفدت منه بما يتلائم مع موضوعي وهو (حديث الرسول الذي أنا بصدد شرحه).

في لحظات الانفعال. ولكن ما هي الأسباب العلمية وراء حدوث ذلك؟

كان ذلك هو الغرض الحقيقي من وراء القيام بإجراء هذه الدراسة الشاملة التي أشرف عليها المعهد القومي الأمريكي للصحة العقلية NIMH تحت إشراف رئيسه البروفيسور (مارك جورج).

في البداية تقول الدراسة: لا أحد يعلم بالتحديد لماذا يهاجم الضغط النفسي والأمراض الأخرى المتعلقة بالانفعال (Emotion) النساء أكثر من الرجال؟.. الدكتور (جورج) يقول تعليقاً على ذلك: في الماضي كان من الصعب القول أن هناك اختلافاً بين الرجل والمرأة في أي مجال خوفاً من أن يقال: إن هناك تمييزاً يُمارس من قبل الرجال ضد النساء، ولكن الآن فإن للعلم رأياً آخر.

وقد أصدر المعهد القومي الأمريكي للصحة الذهنية بياناً يَشْرح فيه كيفية قيام الدكتور (مارك جورج) وفريقه الطبي بإجراء دراسة طبية شاملة على مجموعة من الحالات لدى كل من الرجال والنساء مستخدمين تقنية حديثة ومتطورة لمراقبة الانفعالات الدقيقة وآثارها في الدماغ.

وقد نشرت الدراسة نتائجها عبر وسائل الإعلام الأمريكية وفي المجلات الطبية المتخصصة وعبر كبرى شبكات التلفزة، وقد استخدم فريق الدكتور «جورج» تكنولوجيا تسمى: مراقبة التوموجرافية للانفعال (positronemission tomography)

واختصارها (PET) ويمكن بواسطتها مراقبة وتتبع المناطق التي تستجيب لأي فعل أو نشاط في محيط الدماغ، وبطريقة السكانر (Scanning) أمكن للأطباء تصوير كل حركة صغيرة في الدماغ وتصوير عمليات الانفعال البشري وذلك للمرة الأولى في تاريخ الطب الحديث.

وقد لجأ الدكتور «جورج» إلى مجموعة من المتطوعين من كلّ من الرجل والمرأة ووضع الجميع تحت اختبار واحد، وراقبهم مع فريقه الطبي بنفس الأجهزة دون تمييز أو اختلاف. وقد كانت النتائج مدهشة ومفاجئة للفريق الطبي الذي أشرف على الدراسة وكالآتي:

أولاً: تمّت مراقبة الأجزاء التي تنفعل في الدماغ في لحظات الانفعال وتقوم بدفع الدم أو بالتحديد بـ(دفق) الدم إلى بقية أجزاء الدماغ.

ثانياً: تمّت المراقبة بعمليات التصوير بطريقة PET والسكانر، لعرض النتائج على شاشات العرض بواسطة أجهزة كمبيوتر متطورة للغاية.

ثالثاً: اتضح من التصوير أن عمليات رد الفعل Reactions في الدماغ كانت لدى المرأة أكبر بثماني مرات عن عمليات رد الفعل في الدماغ لدى الرجل.

يقول الدكتور «جورج» تعليقاً على تلك النتائج لإحدى المجلات الطبية المختصة: في البداية كنت خائفاً من طريقة ظهور وعرض المعلومات وترجمة ما ظهر لنا على الشاشة..

ولكن بعد تكرار التجربة على الأشخاص أنفسهم وعلى أشخاص آخرين تأكد لنا أنه على الرغم من عدم وجود أي اختلاف في التركيبة الخَلقِيّة للدماغ بين الرجل والمرأة، إلا أن الاستجابة الانفعالية لدى المرأة أكبر منها لدى الرجل.

وقد أوضح فريق الأطباء الذين أشرفوا على فحص ودراسة الأدمغة أن الهدف ليس إيجاد الفرق في رد الفعل لدى المرأة والرجل، بل لمساعدة كل من الطرفين لمعرفة أنفسهم ومعرفة الطرف الآخر بشكل أفضل.

ولنذكر عنوان المقالة مرة أخرى: «المرأة وكهرباء الانفعال.. نصيب أكبر ومضاعفات أخطر..»، انظر: يقول: مضاعفات أخطر، لكن متى؟ إذا منعناها ـ أي المرأة ـ من القيام بواجباتها التي هي حريصة على أدائها، إذن أما نكسر ضلعه (كناية عن عاطفتها) إذا ما حاولنا أن نكون حاجزاً أمام ما تريد تنفيذه؟!! والغريب... أن الكاتب الغربي هنا يخشى أن يذكر أن هناك اختلافاً بين الرجل والمرأة في أي مجال، خوفاً من أن يقال: إن هناك تمييزاً يُمارس من قبل الرجال ضد النساء.. نعم ربما أنهم يخشون من (وثيقة بكين)[1].. مفردات المرجعية الجديدة، والتي تمثل الفكر النسوي الجديد، والتي هي عبارة

(1) أي: أن الأمم المتحدة تعقد مؤتمراً كل سنة (في السنة الأولى يطلق عليه + 1، وفي السنة الثانية + 2، وهكذا)، وتلك المؤتمرات تشبه ورشة عمل لمتابعة تنفيذ توصيات مؤتمر بكين سنوياً حتى يُعقد المؤتمر الدولي الرسمي القادم.

عن مخطط واضح لتدمير المرأة، وتدمير الحضارة البشرية ذاتها ويبدو لنا أن الحضارة الغربية تريد أن تدمر الحضارات الأخرى وعلى رأسها الحضارة الإسلامية بعد أن شارفت هي على الهلاك والتدمير بسبب خضوعها للأفكار النسوية والشذوذ الجنسي والأخلاقي[1]، كان هذا تعليقاً على خشية العلماء الغربيين من الجمعيات التي تدافع عن النساء.. ووثيقة بكين ظاهراً تدافع عن المرأة.. ولكن زوراً وبهتاناً إنما المراد بها تدمير النساء، ودعني أخي القارىء كي أعود إلى إكمال الموضوع العلمي، وكالآتي: حيث يقول البروفيسور «جورج»:

وقد لجأ الفريق الطبي إلى مجموعة من أطباء علم النفس

(1) يواجه العالم الغربي في أوروبا حالة من العقم، حيث أدى الانحلال الأخلاقي والشذوذ إلى عدم تعويض الأجيال العجوز بأجيال جديدة من المواليد، كما أن مؤسسة الأسرة تواجه الانقراض هناك، حيث ترتفع نسب الطلاق والامتناع عن الزواج، كما ترتفع نسبة الأولاد غير الشرعيين، وترتفع نسب الإلحاد، والمثير أن ذلك كله يتناسب طردياً في حالة الدول ذات الوضع الرفاهي الأعلى، وفي أمريكا حيث يتمرد المهاجرون من آسيا والشرق الأوسط ودول أمريكا اللاتينية على برامج تنظيم الأسرة، وهو ما يحافظ على إبطاء شيخوخة المجتمع الأمريكي، وبالنظر إلى الأرقام التي تنفقها أمريكا على الانحلال الأخلاقي نصاب بالدهشة: فهي تقدم ما مجموعه 600 مليار دولار في عام 2020م لتبني الأطفال غير الشرعيين، وتقديم المساعدات العائلية والطبية سوف ترتفع إلى تريليون دولار عام 2030م، وأظن أن الدمار الذي أصاب الغرب يريد أن يشاركه فيه العالم كله - خاصة المسلمين - كالزانية التي تود أن لو صار الجميع مثلها.

وعلم الاجتماع لمتابعة كل حالة على حدة، فكانت النتائج كالآتي:

أولاً: يلجأ الرجال بشكل عام في لحظات الانفعال إلى ردود أفعال قوية - وأحياناً عدوانية - واللجوء إلى أذى النفس عن طريق اللجوء إلى الحبوب المهدئة أو تناول الكحول.

وللتعليق على الفقرة الأخيرة أود أن أشير إلى رد الفعل القوي عند الرجل، - وأحياناً تكون عدوانية - أيها الرجال.. أما تتذكرون انفعالاتكم الصاخبة أثناء الليل عندما يبكي أطفالكم الرضع؟

أما قَد انتقَلتم إلى غرف أخرى وتركتم الرضيع وأمه في تلك الأثناء؟.. وفضلاً عن ذلك، ربما تقولون ما تقولون من كلمات تزعج وتقلق زوجاتكم.

أما تنزعج منكم المرأة وتقول: هؤلاء هم الرجال؟.. أم ماذا؟.. ويستمر البروفيسور جورج ويذكر النقطة الثانية.

ثانياً: تلجأ النساء على النقيض من الرجال إلى كتمان وإلى ردود أفعال داخلية أقل حدة من الرجال وأقل عدوانية تجاه النفس.

وها هي المرأة الحنون التي نراها على النقيض من الرجال.. إنها تسكت وتكتم في داخلها كل شيء، فلو كان كل من الرجل والمرأة عدواني الطبع.. لمات الرضيع!! إذن أليس هذا التكامل بين طبيعتي المرأة والرجل من عظمة الله جل وعلا؟

ثالثاً: خرج علماء النفس والاجتماع بنتيجة مفادها: يلجأ

الرجال في لحظات الانفعال إلى حلول (عدوانية) بالضغط النفسي (Depression) والقلق (Anxiety) وخلل في النوم وتناول الطعام.

كان يبدو غريباً قبل سنوات، لو قيل: إن دماغ المرأة كدماغ الرجل... نعم إنهما متساويان من الناحية التركيبية، ولكن انفعال المرأة وتأثرها أكثر من الرجال بثمانية أضعاف، والحمد لله أن للمرأة حنان أكثر بكثير من الرجل، وإلّا لما كانت تعطف على أطفالها، وما كانت تسهر من أجلهم، وأنا أرى بهذا الاختلاف، أن الله جل وعلا أودع نعمة في النساء، وأنهن يُؤجرن عليها في الدنيا والآخرة، إذن كيف لا تقلق المرأة على طفلها الذي يبكي؟

ولا يخفى علينا هنا أن نذكر شيئاً، وهو: أن المرأة في شرقنا الإسلامي رغم أنها تسهر الليالي على أطفالها ـ لحنانها الذي قيل الكثير عنه ـ فإنها في الوقت نفسه تتلذذ كثيراً، وتنشرح لهذا الواجب؛ لأنها قد أدته تجاه أعز مخلوق عليها، وهذا الأمر يريحها كثيراً، وهذه الراحة يَعْجَز القلم عن وصفها.

أمّا لو استُغِلَّت هذه العاطفة والانفعال لدى المرأة لمشاكل (خارج منزلها) إضافة إلى واجبها الآنف الذكر، فإن تلك المعضلات قد تقضي عليها وتؤدي إلى إصابتها بأمراض كثيرة منها: القلب والسكر وغيرها من أمراض العصر.

رابعاً: النتيجة النهائية كما يقول علم الاجتماع: إن امرأتين من كل أصل ثلاث نساء في العالم تعانيان من الضغط النفسي

والقلق، إذن هل يجوز لنا أن نكرس على المرأة أن تقوم بواجبها في المنزل إضافة لواجباتها خارج المنزل؟

إن منظمة الصحة العالمية (WHO) تصف القلق والضغط النفسي في الوقت الحاضر كرابع أسوإ مرض يُعاني منه الإنسان، ولكن الدراسة التي أجراها فريق الدكتور (مارك جورج) في الولايات المتحدة تقول: إن القلق والضغط النفسي مرشحان لأن يَحْتَلَّا المركز الثاني في قائمة أخطر الأمراض التي تصيب البشر بحلول عام 2020م، وقد يكون السبب في تزايد حالات الإصابة بأمراض القلب.

وأحد الأرقام التي خرجت بها الدراسة تشير إلى أن 17,1٪ من مجمل الأمريكيين من المحتمل أن يكونوا قد أصيبوا أو أنهم مصابون بالضغط مرة في حياتهم. وطبقاً للدراسة فإن القلق والضغط النفسي من أكثر الأمراض شيوعاً في الولايات المتحدة الأمريكية، وتصاحب ذلك أعراض أخرى مثل: الصداع المزمن، الدوخة، الأرق، ارتفاع الحرارة ونسبة إفراز العرق من الجسم، ويُهاجم القلق ما بين ثلاث إلى ست ملايين أمريكي سنوياً وثلثا هؤلاء هم من النساء، والغريب أن حوالي تسع من أصل عشرة مصابين هم من الإناث من صغار السن، هؤلاء يُصَبْنَ عادة بالقلق والضغط النفسي المصاحب للخلل والعجز في تناول الطعام. فإذا نظرنا ملياً إلى النقطة الرابعة نرى أن تُلْثي المجتمع الغربي من النساء أُصِبن بالضغط النفسي والقلق ولكن ما أسباب ذلك؟

يقول الشعراوي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: من يحاول أن يُخْرج المرأة من مهمتها أو يُخرج الرجل من مهمته فقد أحال، ومعنى أحال: وضع الأمور في غير نصابها.

فالمرأة التي تتجه وتتحرك بشكل مغاير ومعاكس لفطرتها وعقيدتها، وترمي نفسها في مجرى (الوأد الحديث) بشكل ترقن نفسها بنفسها لن تنال الراحة أبداً، فمن العجب أن تجد المرأة موؤودة تحت تراب الثقافة العصرية، وغطاء التقدم والحرية الفاشلة على حساب ماذا؟ على حساب أخلاقها وكرامتها ومستقبلها»[2].

لن ترتاح المرأة إذا عاشت بشكل معاكس لفطرتها، لا في دولنا الشرقية فحسب، بل حتى في الدول الغربية، وخير مثال على ذلك هو الحالة التى يرثى لها في هذه الدول حيث فيها نسبة النساء اللاتي يعانين من الضغط النفسي والقلق 75٪ كما جاء آنفاً، إذن هل يفيدهن ثراء بلدهن وقصورهن في هذه البلاد؟ إذا كان التقدم العلمي الشامخ في مثل هذه البلاد لا يريح أفرادها فما فائدة العلم والتقدم هذا؟ لقد عشت في الغرب حوالي سبع سنوات، وكنت خلال تلك الفترة أعِدُّ يوماً بعد يوم للوصول إلى موعد عودتي إلى بلدي (إقليم كردستان العراق) بعد إكمال دراستي.. في الحقيقة، الغرب يدمر هذه الأمة فكراً وسلوكاً بوسائل خبيثة وحقيرة هي من صفاتهم وبشتى الطرق، حيث

(1) المرأة كما أرادها الله، ص: 38.

(2) المرأة والثقافة العصرية ـ الأستاذ ناجي عبد الله محمد المرسي. بتصرف من المؤلف.

وقعنا فريسة لمخططاتهم وغزوهم الأخلاقي الذي يحمل اسماً جديداً وفي إطار براق، وداخله يحمل الفساد (الثقافة) بزيها الجديد، إنها الثقافة الأوروبية، ثقافة لا تنتمي لتراثنا الأصيل، ففي الغرب أُهينت كرامة المرأة وعزتها، وجعلت سلعة في متناول المرابين بأساليب متنوعة لاستغلال الأمثل والخبيث لهذه الحرية والكرامة.

إذن أين هي حقوق المرأة في أمريكا؟ حيث على لسان الدكتور (روبرت كوين) الأمريكى يصرح هذا الرجل ويقول: في أمريكا يقتل مليون ونصف طفل سنوياً من جراء عمليات الإجهاض، فهم يعدّون الأطفال مصدر إزعاج، وهذا مُحال عند المسلمين، لأن الإسلام يحترم حقوق المرأة في تجهيض الجنين في الثلث الأول من الحمل حصراً، وقبل أن تنفخ الروح في الجنين وعند الضرورة فقط.

إذاً أين هي حقوق الإنسان في أمريكا؟ وأين حقوق المرأة؟ فكيف لا يصاب حوالي 75٪ من النساء في أمريكا بالضغط النفسي والقلق؟ وأردفَ يقول: «وفي الولايات المتحدة تضاعف معدل الطلاق في السنوات العشر الأخيرة، وكان له أن يرتفع أكثر لولا أن الناس لم يعودوا يهتمون بالزواج، فهم لا يملكون مفهوم الأسرة وأصبح نفوذ الشواذ جنسياً من القوة بحيث استطاع جعل القانون يعترف بوجودهم (كعائلة) مما يعطيهم الحق في الإعانات الاجتماعية». . ولهذا أقول: إن إتمام التقدم في أمريكا يجب أن يكون بإتمام إدخال الإسلام فيها وتطبيق المبادئ

الإسلامية، وسيجد الكثيرون من المتمسكين بدينهم من النصارى واليهود أن تعاليم الإسلام موجودة في كتبهم (غير المحرفة) بل وجدها كثيرون منهم!).

فمعدل الطلاق زاد في أمريكا... فأعود لنفس السؤال المكرر مرات، ألا تستحق أن تُصَاب 75٪ من النساء هناك بالقلق والضغط النفسي؟! أي نظام هذا؟ ما هي مبادئهم؟ إنها مبادئ الغاب.. ولعل الشيء الغريب الذي يلفت نظري هو: إذا كان حسب تجربة الدكتور جورج والذي يقول: «على الرغم من عدم وجود أي اختلاف في التركيبة الخَلقِية للدماغ، إلّا أن الاستجابة الانفعالية لدى المرأة أكبر منها لدى الرجل..»

ما هو إذن سبب اختلاف الانفعالية لدى كليهما؟ وواضح من أَن مُخهما من الناحية التركيبية لا فرق بينهما، ما منشأ هذه الانفعالات، أو ردود الفعل المختلفة؟ هل هي مادية؟ أو هو شيء آخر؟.. إذا قلنا: إن المخَّين يختلفان في الرجل والمرأة من الناحية التركيبية فهذا الأمر بُرهن على بطلانه آنفاً، وإذا قلنا: إن المخ هو الذي يفكر ويتأثر وينفعل ويعقل... إذ كيف يفكر المخ وهو مادة غافلة عن وجودها؟ لا تعرف بنفسها ولا أقسامها ووظائفها. أليس هذا اعترافاً بوجود نشاط آخر في غير نطاق الجسد يجهل الإنسان كنهه ويقوم له باطن خفي؟ أليس ذلك اعترافاً بالروح؟ وفي غيابها بطل التفكير.. من الذي يفكر ويعقل؟ لا شك أنها (الروح)، أمّا المخ فهو آلة للإدراك. ومن منح الروح للإنسان؟ ومن وضع فيها الفطرة؟

الفطرة ليست مادة تلمس..، فالمخ هو آلة للإدراك واستعداده لذلك كاستعداد آلات النجار والصائغ للعمل، فالنجار وإن كان قادراً في صنعته، ماهراً في مهنته إلّا أنه لا يستطيع أن يعمل ويقطع ويُطقم ويزخرف إلّا بآلات يستخدمها، فالروح تستخدم العقل للتفكير كما يستخدم النجار آلته. والدكتور (جورج) صاحب التجربة السابقة لا يعرف عن الروح شيئاً، ليقول لنا: إن ردود الفعل المختلفة من الرجل والمرأة نابعة من الروح، فتلك الردود، إنما هي شيء روحي غرسها الله بشكل يتناسب مع الجنس، فإذا غُيرت الفطرة في المرأة أو الرجل بما يروق الدول الغربية، حدثت الفوضى والضغط النفسي والقلق كما حدث ذلك بنسبة 75٪ للنساء في تلك الدول، في التجربة السابقة للدكتور جورج.

إذ أني فيما سلف ذكرت أمثلة على أن للمرأة خصائصها النفسية وأن النبي ﷺ نبهنا إلى أن هناك اختلافاً في خصائصها النفسية عن مثيلتها في الرجل، وقد أثبت العلم ذلك، وكما دلّت التجارب العلمية على ذلك. لذا يجب على الرجال مراعاتهن بما يتلائم مع خصائصهن. فصدق رسول الله ﷺ عندما قال: «**فإن المرأة خلقت من ضلع، ولن تستقيم لك على طريقة، فإن استمتعت بها استمتعت بها وبها عوج، وإن ذهبت تقيمها كسرتها، وكسرها طلاقها**»[1].

(1) أخرجه مسلم في (الحديث: 3631).

ولعل ذكر دراسات أخرى تبين لنا المدى التي وصلت إليها المرأة من الضغط النفسي والقلق، وعدم السعادة في الحياة، ويزيدنا علماً بما وصلت إليه المرأة الحنون في عصرنا هذا، حيث يقولِ الدكتور مصطفى السباعي[1]: إنه في آب 1962 نشرت مجلة ألمانية (ديكستيل بيكلايدونج) الصادرة في مدينة دوزلدورف عن طبيب ألماني يدعى: البروفسور دكتور كلاين (Klein) رئيس أطباء المستشفى الحكومي للنساء في مدينة (Ludwiksburg) في مؤتمر الأطباء هناك: إن ثلاثين في المائة من النساء في مجتمعنا لسن سعيدات في حياتهن، بسبب المتطلبات الجسمية والروحية المتصاعدة، وعلى هذا فإنني أعلن التغيير العام لعلم الطب. إن الواجب على (المجلس البلدي) أن ينظر إلى هذه الفاجعة التي تحل بكثير من نسائنا العاملات بعين الجد والاعتبار، إن هذا الخطر يهدد كثيرين منا، لأن هذا معناه انهيار عظيم وخسارة مزدوجة لملايين من البشر. فالبناء الجسدي والروحي لدى النساء يختلف اختلافاً كبيراً عن تركيب بنية الرجال القاسية المتينة.

نعم إن الإحصائية التي ذُكِرَت حول عدم سعادة النساء في حياتهن البالغة (30٪) كانت في سنة 1962، والإحصائية التي ذكرت في بداية الموضوع تشمل ثلثي المجتمع الغربي من النساء، وهذه الإحصائية كتبت في سنة 1992. فلنقارن بين هذا

(1) المرأة بين الفقه و القانون. بتصرف.

وذاك فإن هذه الزيادة (بعد حوالي 40 سنة) في نسبة عدم السعادة والضغط النفسي والقلق تعد مخيفة ومهلكة، فتجربة الدكتور (جورج) في أمريكا تأييد في مضمونها لحديث رسولنا، والذي ينبهنا فيه أننا يجب أن نراعي المرأة كثيراً، ولا نكدس عليها الواجبات الكثيرة التي تُتعِبها؛ لأن المرأة لا تتحملها، بل قد يؤدي إلى كلل في أعصابها.

ويذكر السباعي في كتابه ناقلاً عن الأطباء في المجلة نفسها (سنة 1962م): إن في الجمهورية الألمانية الاتحادية اليوم حوالي سبعة ملايين من النساء العاملات، وهذا أكثر من ثلث المجموع من عدد العمال. إن أكثر من ثلث النساء متزوجات، ومعظمهن أمهات أطفال في سن السابعة، وهؤلاء الأطفال بحاجة إلى عناية الأم، إن هذا العبء المثلث على تلك النساء هو السبب الوحيد الذي يؤدي إلى تدهور حالتهن الصحية التي بدورها تؤدي إلى تدهور الطفولة، ومن ثم المجتمع ككل.

إنه من المعروف أن البناء الجسمي والروحي لدى النساء يختلف اختلافاً كبيراً عن تركيب بنية الرجال القاسية المتينة. إنه ليس داعياً للتعجب أن تعطينا الإحصاءات الطبية الصحيحة في المجتمع الألماني أن كل ثامن امرأة تُعاني مرضاً في القلب وفي جهاز الدوران الدموي.

إن التقارير الطبية ترد هذا إلى التعب غير الطبيعي، إن نسبة وجع الرأس الدائم عند العاملات هو أكثر بسبع مرات من تلك

اللاتي في البيت بدون عمل، والمرض الجنسي من موت الجنين أو الولادة قبل الأوان، هو كما يتخيل أنه الوقوف الدائم أو الجلوس المنحني أمام منضدة العمل أو الحمل الثقيل غير الاعتيادي، لا بل هناك العامل النفسي الذي هو الأساسي، ومن المعروف اليوم أن التشويه عند النساء: تضخم الرجلين، أو تضخم البطن أو غير ذلك، يعود إلى الحالات النفسية التي تقاد من الدماغ ومركزها في النخاع الشوكي الذي قد يؤدي إلى الشلل أو العاهة الجسمية.

بعد كل هذا فهل آن الأوان أن نعفي المرأة عن واجباتها الكثيرة حتى لا تكون تحت الضغط النفسي والتعب الجسدي، فإنها إذا كلّفت بهذا الأعباء الملقاة عليها، فإنها كمربية أجيال تتدهور حالتها الصحية، وتتدهور حالة أطفالها، وبالتالي يشمل التدهور المجتمع كله.

فأزيلوا أيها الحكومات عن المرأة الأعباء الملقاة عليها. والغريب أن الكاتب ينقل عن المجلة الألمانية ويقول: إنه ليس داعياً للتعجب أن تعطينا الإحصاءات الطبية الصحيحة في المجتمع الألماني أن كل ثامن امرأة تعاني مرضاً في القلب وفي جهاز الدوران الدموي، وما يدريك ما لإحصائيات هذا القرن في هذا المجال؟ حتماً لو عرفناها، ستكون مرعبة للغاية.

فالحديث الذي كنا بصدده في مستهل الموضوع: «**المرأة كالضلع**...» اتخذه بعض من المخالفين مجالاً للطعن في

الإسلام ونبيه ﷺ، ووضع المرأة في شريعته، فعلى النقيض من ذلك يقول الكاتب د. محمد بلتاجي[1]:

أرى أن هذا الحديث من أعلام النبوة وعلامات صدقها، وتكريمها الحق للمرأة ببيان ما يُناسبها ويُلائمها من تربية ومعاملة، ذلك أنني قد تأملت كثيراً أسباب الخلاف بين الرجل والمرأة: بنتاً وزوجة، وأختاً وأماً، فتبين لي أن السبب الحقيقي الذي يختفي وراء ظواهر وأسباب كثيرة معلنة هو أن الرجل يتعامل - أو يريد أن يتعامل نفسياً - مع المرأة كأنها - من حيث التكوين النفسي - رجل مثله، ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران: 36] كما حكى الله تعالى. وليست الأنثى كالذكر لا فيسيولوجياً ولا بايولوجياً، ولا سايكولوجياً.....

إذن إن ما توصل إليه الدكتور (جورج) - في تجاربه العلمية التي ذكرت في مقدمة الموضوع - والذي يقول فيها: على الرغم من عدم وجود أي اختلاف في التركيبة الخَلقيَّة للدماغ بين الرجل والمرأة، إلّا أن الاستجابة الانفعالية لدى المرأة أكبر منها لدى الرجل، إذن هذه التجارب تؤكد ما ذهب إليه الدكتور بلتاجي، وهو يقول: وليس الذكر كالأنثى، لا فيسيولوجياً، ولا سيكولوجياً بالرغم من أنه عندما ألف كتابه لم يكن ملماً بهذه التجارب، وفي هذا المجال بالذات.

---

(1) مكانة المرأة في القرآن الكريم و السنة الصحيحة. د.محمد بلتاجي، 2000، بتصرف.

وبعد كل ما مضى هل أعطى القرآن الكريم وديننا السميح الأم الحنون التي ربت الأجيال فأصبحوا رجالاً حقها؟ نعم لأنها حقاً مسحت دموع الصغار حتى أصبحوا رجالاً كباراً، إنها الأخت الغالية، والزوجة التي لم تنم من أجل راحتنا، وإنها تحملت كل عذاب السهر آناء الليل من أجلنا، وإنها بهذه الصفات تستحق حديث الرسول ﷺ: «**الجنة تحت أقدام الأمهات**...»[1] وكذلك: «**استوصوا بالنساء خيراً**..»[2].

(1) ذكره العجلوني في «كشف الخفا» (الحديث: 1/ 401)، وذكره الزبيدي في «إتحاف السادة المتقين» (الحديث: 6/ 322).

(2) أخرجه النسائي في (الحديث: 5186).

obeikandl.com